التعليق على صحيح البخاري

[الدرس السادس والعشرون]

لفضيلة الشيخ الدكتور

صالح عبد الكريم

حفظه الله ورعاه

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:-

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، نواصل التعليق على صحيح الإمام البخاري في أبواب كتاب العلم.

قال بالإمام البخاري – رحمه الله –

"بابٌ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"

قال حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ، خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ».

هذا الحديث، وتبويب أشار إليه البخاري في ما أورده سابقاً على وجه التعليق، "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"، والقصد من هذه الترجمة: أن من علامة التوفيق والخيرية، التوفيق لطلب العلم.

وشيخ البخاري في هذا الحديث: هو "سَعِيدُ بْنُ كثير بن عُفَيْرٍ البصري".

ويرويه عن: "عبد الله بْنُ وَهْبٍ بن مسلم البصري": الذي كان يحبه الإمام مالك، وكان يُرسل له الفقه والعلم، وروى له الجماعة، وقال عنه الإمام أحمد – رحمه الله – : "ما أصح حديثه"، يعني من أصح الناس روايةً في الحديث.

"عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ": وقد مرَّ ترجمتهم، و "حُميد" أيضاً.

"سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ": معاوية بن أبي سفيان، خال المؤمنين، كاتب الوحي، له فضائل عظيمة جاءت في سنة النبي ﷺ.

وهنا في هذا السند رواية تابعي عن تابعي، ابن شهاب الزهري "تابعي"، يروي عن حُميد بن عبد الرحمن وهو من طبقة التابعين.

وقوله: "سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ خَطِيبًا": هذا فيه نشر العلم؛ لأن تبليغ العلم على المنبر أوسع، وأكثر نفعاً للناس، فجاء هذا الوصف، "سمعت معاوية خطيباً": فيه نشر العلم، وفيه الدقة في الرواية (الدقة في الرواية)، أنهم يذكرون الأوصاف المتعلقة بالسماع، فهذا السماع حصل على المنبر.

قال: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ": الفقه في الدين هنا المراد به: الفهم (المراد به الفهم)، ولا شك أن العلماء لما تعرضوا لكلمة الفقه، ذكروا فيه عدة معانٍ، وأشهرها ثلاثة:

- **المعنى الأول**: هو الفهم الدقيق (الفهم الدقيق)، قالوا: "يُراد بالفقه الشيء الدقيق"، ولذلك قالوا لا يُقال أن السماء فوقنا والأرض تحتنا هذا فقه، قالوا لأن هذه أمور بديهية؛ لكن الفقه يُطلق على الأمور الدقيقة.

- **وأيضاً المعنى الثاني من معاني الفقه**: أن يسبق غيره في الفهم (أن يسبق غيره في الفهم)، فقالوا: "يُطلق على الفقه على من سبق غيره في الفهم".

- **والمعنى الثالث: وهو المستخدم**، وعليه تؤول أغلب النصوص أنه "مطلق الفهم"، مطلق الفهم، فمعنى الفقه "مطلق الفهم"، والبعض يعني يُغاير في طريقة استخدام الكلمة بين إذا قيل فَقِه وفَقَه وفَقُه، قالوا: "بكل حركة يتغير المعنى في الفقه"، فقالوا: "لو فتحنا فَقَه بمعنى فهم"، و "فَقِه": أي سبق غيره في الفقه، و "فَقُه": أي صار له الفقه مزية وسمة؛ لكن هنا في النص: "من يُرد به خيراً يفقهه": أي يُفهمه".

وهنا قال: "يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ": هذا يشمل سائر العلوم (يشمل سائر العلوم"، وليس المراد به فقه الأحكام (فقه الأحكام)، لا شك أن فقه الأحكام يدخل دخولاً أولياً في معنى الفقه؛ لكن في هذا النص، يدخل فيه تفسير القرآن، ويدخل فيه معرفة الاعتقاد، ويدخل فيه غيره من العلوم الشرعية، فالمراد هنا بالفقه: "العلم"، المراد به العلم وليس الفقه، العلم التخصصي الذي يدرس الأحكام.

قال: " مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ": وذكر بعض العلماء مفهوم المخالفة، أن انصراف الإنسان عن العلم، وانصراف الإنسان عن التفقه في الدين، هذه علامة على أنه لم يُرد به الخير (لم يُرد به الخير)، فإذا وجد الإنسان من نفسه انقباضاً من العلم، وانقباضاً من الفقه، وهذه المجالس ينبغي على الإنسان أن يُراجع نفسه؛ لأن هنا علامة خيرية، أن يوفق الإنسان إلى الفقه، وأن يتعلق الإنسان بالعلم، فإذا وجد الانقباض والانصراف عن العلم، فهذا أمر خطير يحتاج الإنسان أن ينظر في نفسه وفي قلبه.

قال: "وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ": هنا العلماء ذكروا في القاسم الذي جاء في هذا الحديث معنيين:

- **المعنى الأول**: قسمة الصدقات (قسمة الصدقات)، يعني أن النبي ﷺ يُقسم الصدقات.

قال: "وَاللَّهُ يُعْطِي": يعني العطاء الحقيقي من الله ﷻ، النبي ﷺ يأخذ الغنائم، ما يأتيه من أموال الزكاة يقسمها بين الناس؛ لكن المعطي الحقيقي هو الله ﷻ، هذا معنى.

- **وقيل المعنى الثاني**: قسمة العلم (قسمة العلم)، أن النبي ﷺ يقسم العلم، ويُبين، ويُوضح، ثم الناس يتفاوتون في حصول العلم في أفئدتهم؛ ولذلك قال: "والله يعطي" والله يعطي، وهذا يعني فيه إشارة إلى أمر مهم جداً، وهو أن حقيقة العلم ليس بمجرد الاكتساب (ليس بمجرد الاكتساب)، يعني قد يأخذ الإنسان بأسباب العلم، يقرأ، يحضر الدروس، يسمع المحاضرات؛ لكنه لا يستفيد، ولا يجد بركة العلم؛ لأن التوفيق في هذا الأمر، وحقيقة الإعطاء، وفتح البصيرة للعلم يكون من الله ﷻ، فهنا قال: "وإنما أنا قاسمٌ والله يُعطي": أي التوفيق في العلم، والفائدة، وانفتاح البصيرة إنما يكون من الله ﷻ.

فذكر العلماء هاذين المعنيين، إما في يعني المال، وإما في العلم، والناس يتفاوتون في العقول، وفي التقبل، وفي الفهم.

قال: "وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ": أي أمة الإجابة (أمة الإجابة)، والمراد بالأمة هنا الجماعة، المراد بها الجماعة، والأمة ترد بمعاني كثيرة؛ لكن هذا السياق المراد به: الجماعة.

"**وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ**": أي تطبيق أمر الله ﷻ، والعمل به، والدعوة إليه، كل هذه المعاني موجودة، من العلم والعمل والدعوة، في أمر الله تعالى، وهذا فيه استمرار الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية إلى قرب قيام الساعة، وهذا الاستمرار كما قال العلماء، استمرارٌ نسبي في جهة الظهور (في جهة الظهور)، يعني هنا "وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً": يعني لا يخلو الزمان في يوم من الأيام إلا وفيه من يقوم بأمر الله، وبالدعوة إلى السنة والخير والاعتقاد، وإن كان هذا الأمر نسبياً، يعني تجد أن الدعوة إلى السنة قد تضعف في بلد دون بلد، وفي عصر دون آخر؛ لكن حقيقة الاستمرار للطائفة المنصورة حقيقة مستمرة، قد تضعف في آسيا، تقوى في أفريقيا، تضعف في أوروبا، تقوى في دولة أخرى، وهكذا، يكتب الله ﷻ لها الظهور، وإن كان هذا الظهور ظهوراً نسبياً.

قال: "لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ": وهذا أمر مهم جداً، وهو وجود المخالف، وهذه سنة الله ﷻ في الكون، وهي سنة التدافع، التدافع بين أهل الإيمان وأهل الكفر، التدافع بين أهل السنة وأهل البدع، هذا التدافع مستمر، وله حكم، وتظهر شعائر الله ﷻ من الصبر، ومن النصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغيرها من التعبدات إثر هذا التدافع، فهذا التدافع موجود، والمخالف موجود، وهذا يقتضي الصبر، وفي بعض الروايات: "لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم"، ولا من خذلهم، قال العلماء: "الخذلان يكون من الداخل، والمخالفة تكون من الخارج"، يعني قد تكون هذه الطائفة المنصورة تُخذل من بعض أتباعها في بعض الأزمان، وتتعرض للأذى ممن خالفهم، ومع وجود المخالف والمتخاذل إلا أن أهل هذه الطائفة يستمرون في الصبر، والثبات؛ لأنه قال: "حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ": وأمر الله هنا في هذا السياق المراد به قيام الساعة (قيام الساعة).

وهذا "حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ": المراد به الإرادة الكونية (الإرادة الكونية)، بأن الله ﷻ يجعل لهذه الأنفس، من كان على الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية، زمان محدد ثم تقبض هذه الأرواح، وهذا جاء مفسراً في الروايات الأخرى من إرسال الريح الطيبة التي تقبض

الأنفس، ثم تقوم الساعة على شرار الناس، ولذلك هذا الحديث وغيره، العلماء يقدرون فيه محذوف، أي حتى قرب أمر الله، حتى قرب قيام الساعة؛ لأن الأنفس الصالحة تُقبض قبل ذلك، وإنما تقوم الساعة على شرار الناس.

والإمام البخاري وغيره من الأئمة وضحوا معنى هذه الطائفة المنصورة بأنهم أهل الحديث (بأنهم أهل الحديث)، وقال بعض العلماء أنهم أهل العلم (أهل العلم)، والنووي في شرحه ذكر أنهم فئات مختلفة، قال: "فيهم العلماء، وفيهم الزاهدون، وفيهم المجاهدون"، وصفات مختلفة في هذا الوصف، لكن لا شك كما ذهب الإمام البخاري وغيره من العلماء، أن أخص من يدخل في وصف الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة هم أهل الحديث (هم أهل الحديث)، من كان، يعني من الذي ينصر سنة النبي ﷺ؟ من الذي يقوم بأمر الله ﷻ؟ الأقرب في ذلك هم أهل الحديث، هذا ما يتعلق بهذا الحديث، ولا شك أن هنا الإخبار عن المغيبات، الإخبار عن أمر غيبي، ثبات هذه الطائفة المنصورة حتى قيام الساعة، وبعض العلماء ذكر أن هذا فيه أن لا يخلو زمان من قائمٍ بأمر الله، لا يخلو زمان من مجتهد كما يذكرون في كتب الأصول، وكتب الفقه، مع فضل العلماء وفضل الفقه في الدين في عموم هذه الترجمة.

ثم بوَّب الإمام البخاري:

"باب الفهم في العلم"

قال حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ، فَقَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً، مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ»، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ النَّخْلَةُ».

هذا الحديث يرويه الإمام البخاري عن شيخه "علي بن المدين"، "علي بن عبد الله بن جعفر المدين، وعلي بن المدين مع البخاري يُعتبر شيخ، ويعتبر في رتبة الأقران، يعني أخذ منه الإمام البخاري، وعلي بن المدين أخذ من البخاري؛ ولكن مع ذلك الإمام

البخاري كان يُجل علي بن المدين، علي بن المدين من أقوى علماء العلل، ويقول ابن الأعين: "رأيت علي بن المدين مضطجعاً، وعن يمينه أحمد، وعن شماله يحيى بن معين، يسألونه عن العلل والحديث، فيمر فيها كالرمح"، وهذا يدل على دقته وقوته في العلم.

والإمام البخاري – رحمه الله – له عبارة مشهورة دائماً تُذكر في التراجم، قال: "ما استصغرت نفسي عند أحدٍ إلا عند علي بن المدين"، "ما استصغرت نفسي"، يعني الإمام البخاري رغم قوة علمه وحفظه، يقول هذا الكلام – وسبحان الله – لما نُقل هذا الكلام، لما سمعوا البخاري يقول هذا الكلام، فنقلوه إلى علي بن المدين، قالوا أن الإمام البخاري يقول: "ما استصغرت نفسي إلا عند علي بن المدين"، فقال علي المدين: "دعوكم منه، فلم ير هو مثل نفسه"، لم ير هو مثل نفسه، وهذا فيه إشادة بفضل الإمام البخاري، ومكانة الإمام البخاري.

يرويه عن سفيان: وقد مضى.

عن "عبد الله بن يسار المكي ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ".

"**عَنْ مُجَاهِدٍ**": مجاهد المكي المفسر الفقيه الذي أخذ التفسير عن عبد الله بن عباس، وجاء في الأثر قال: "عرضت القرآن على عبد الله بن عباس ثلاثين مرة، يقرأ عليه القرآن ويسأله عن المعاني، وتفسير الكلمات، ولذلك تجدون أقواله في كتب التفسير، قال مجاهد، قال قتادة، قال الحسن، أسماء بارزة، معروفة، لهم أقوالهم في علم التفسير.

هذا الحديث يقول فيه مجاهد: "صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا": وهذا يدل على أمر وهو توقي الصحابة في الحديث عن رسول الله ﷺ إلا عند الحاجة، كانوا يخافون، يتورعون خشية الزيادة، أو خشية الخطأ والغلط في حديث النبي ﷺ، فكانوا يتورعون من التحديث إلا عند الحاجة.

طيب، قد يقول قائل يعني كيف هذا مثلاً، الآن سمع منه حديث واحد، ونحن نقول أن ابن عمر كان ممن يتوقى حديث النبي ﷺ، ومثله عمر بن الخطاب، إلا أن ابن عمر عند المحدثين من المكثرين (من المكثرين)، المكثر من تجاوزت مروياته الألف، فابن عمر

مكثر من المرويات، فكيف نقول أنه كان يتوقى؟ قال العلماء أن أكثر مرويات ابن عمر كانت إجابات (كانت إجابات وفتيا)، فكان إذا سئل أجاب بحديث النبي ﷺ، وإلا كان يُقلل أصالةً من الرواية عن النبي ﷺ خشية الزيادة والنقصان، ليس هو فقط، بل عدد من الصحابة كانوا يتورعون في الرواية خشية الزيادة أو النقص.

"قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ": وهذا هو وجه الشاهد (وجه الشاهد)، أنه لما أُتي للنبي ﷺ بقطع من الجمار الذي يكون داخل النخل، وسأل النبي ﷺ عن الشجرة في هذا الوقت، ربط ابن عمر، وهذا مما يدل على الذكاء، وحسن الفهم، واستخدام قرائن الأحوال (قرائن الأحوال)، يعني النبي ﷺ ما سأل عن النخلة إلا لما جاء شيء يُذكِّر بهذه النخلة، وهو الجمار، وهذا قصد تبويب البخاري، أن العلم يحتاج إلى الفهم (أن العلم يحتاج إلى الفهم)، ويحتاج إلى التركيز، فهنا ابن عمر ربط بين الأمرين، وتوصل للإجابة من خلال قرينة الحال، أما باقي الحديث فقد مضى معنا، وذكرنا جملة من الفوائد المتعلقة بهذا الحديث.

ثم قال الإمام البخاري – رحمه الله –

"باب الاغتباط في العلم والحكمة"

وقال عمر: "تفقهوا قبل أن تسودوا".

قال حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَلَى غَيْرِ مَا حَدَّثَنَاهُ الزُّهْرِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ قَيْسَ بْنَ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا ".

هذا التبويب في بيان فضل العلم، وأن الإنسان يتمنى العمل الصالح، ومن أجل ما يتمناه الإنسان: العلم، قال: "باب الاغتباط في العلم والحكمة"، الاغتباط من الغبطة، وهو أن يتمنى الإنسان حال المغبوط من غير تمني الزوال "زوال الشيء عنه"، يعني تجد إنسان

عالم لديه من الفقه، تتمنى أن تكون على مثل هذا العلم، دون تمني زوال هذا العلم، وهذه النعمة عنه حتى لا تقع في الحسد، هذا معنى الاغتباط، قال الاغتباط في العلم، والحكمة.

هنا عطف الحكمة على العلم، هل يُقصد به التأكيد؟

- يعني بعض العلماء قال: "أن الحكمة المراد هي: معرفة الأشياء على ما هي عليها (معرفة الأشياء على ما هي عليها)، قالوا: "وهذا هو ماهية العلم"، فقالوا أن العطف هنا للتأكيد.

- وبعض العلماء قال: "أن القصد هنا: المعنى الخاص للحكمة، وهي إدراك المقاصد"، إدراك المقاصد والأسرار، واستعمال الشيء في موضعه، وهذا أخص (وهذا أخص)، ولعل هذا هو الأقرب، أنه معرفة مقاصد الشريعة، ومعرفة الأسرار، والعلم إن لم يرتبط بالحكمة قد يضر (قد يضر)، فالعلم المقرون بمعرفة المقاصد والمصالح والمفاسد والغايات والمآلات، هذا علم مثمر يدل على العمق في العلم، وكما قال العلماء: "ليس الفقيه الذي يعرف الخير من الشر، ولكن الفقيه هو الذي يعرف خير الخيرين، وشر الشرين".

وهذا التبويب قصد به الإمام البخاري شرف العلم، وأن الإنسان يتمنى حال العالم، وصاحب العلم، وذكر الإمام البخاري في بداية هذا الباب، الأثر عن عمر بن الخطاب "تفقهوا قبل أن تُسودوا"، في بعض النسخ الإمام البخاري علَّق على أثر عمر، قال: "وبعد أن تسودوا"، وبعد أن تُسوَّدوا، قال: "وقد تعلَّم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم".

هنا قول عمر: "تفقهوا قبل أن تسودوا"، ما المقصود بالسيادة؟

السيادة فُسرت بأمرين:

- فسرت بمعنى الرياسة والمسؤولية، أن الإنسان إذا ولي الرياسات، والمسؤوليات فإنه ينشغل عن العلم، ولا يجد الفرصة للتعلم، بل قال شيخنا الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله -: "ربما أنه إذا ولي الرياسة والولايات، يستحي أن يرجع مرة أخرى فيجلس في مجالس العلم، فيفوته العلم"، ولذلك جاءت هذه الوصية بالتفقه قبل السيادة.

- المعنى الثاني الذي ذكره أهل العلم: أن السيادة بمعنى الزواج، قالوا: "تحصل لـه السيادة المحصورة في البيت"، السيادة المحصورة في البيت، وتدخل عليه مسؤوليات الزواج والبيت والأطفال، فينشغل عن العلم (ينشغل عن العلم)؛ لأن المسؤوليات تكثر عليـه، طالما الشاب عزب غير مرتبط بمسؤوليات يجد فسحة من الوقت، وحرية ربما لا يجده من دخل في الزواج وارتبط بمثل هذه المسؤوليات.

وتعليق الإمام البخاري ليس استدراك على أثر عمر، وإنما توضيح لأمر آخر، وهو: لو سوِّد الإنسان و لم يتعلم قبل ذلك، أو لم يحصل له الكفاية من العلم، لا يعني أنه يتوقف عن العلم (لا يعني أنه يتوقف عن العلم)، ثم ذكر مثالاً جميلاً وهو أن صحابة الـنبي ﷺ أكثرهم تعلموا في الكبر (أكثرهم تعلموا في الكبر)، فليس كبر السن سبباً مانعـاً مـن التعلم، وأنتم تقرؤون في تراجم كثير من العلماء الذين بدأوا طلب العلم في الكبر، مثـل ابن حزم، والكسائي وغيرهم من العلماء، فلا يعني كبر السن أنه يمنـع مـن العلـم، والدراسة.

يخبرني أحد المشايخ عن رجل بلغ السبعين من عمره، فجاء إلى أحـد المحفِّظـين في المسجد النبوي، وهو من البلاد، يعني هذا الرجل الكبير في السن من بلاد روسيا، ولـك أن تتخيل صعوبة اللغة، فجاء إلى هذا المحفَّظ وقال أنا أريد أن أحفظ القرآن (أريـد أن أحفظ القرآن)، فقال: "تحفظ القرآن وأنت في هذا السن؟"، قال: "نعم"، فقال: "أنا لدي عزيمة وأريد أن أحفظ القرآن"، قال: "ولو أن أحفظ آيةً واحدة"، فبدأ بالحفظ، كل يوم يحفظ آية آيتين، آية آيتين، ويزيد، فهذا الرجل أخذ يحفظ آية وآيتين ويزيد في الحفـظ، فجلس سبع سنوات حتى حفظ القرآن، سبع سنوات وعمره في كم؟ سبعين، كم بلـغ؟ سبع وسبعين، فلا يعني أن الإنسان إذا كبر في السن أنه لا يستطيع العلم، العلـم فقـط يحتاج إلى إرادة، ويحتاج إلى عزيمة في هذا الشأن حتى يحققه الإنسان.

وفي هذا الأثر استنبط بعض العلماء أن السيادة تتحقق بالفقه (أن السيادة تتحقـق بالفقه)، يعني قد تأتي الرياسات، وقد تأتي الدنيا بالعلم إذا ارتفع الإنسان في العلم تُعرض

عليه؛ ولذلك تجد أن العلماء في تراجمهم كثير منهم عُرض عليه القضاء (عُرض عليه القضاء) بعدما تعلم، وبعدما وصل درجات في العلم.

وفي هذا السند في الحديث الذي يرويه عن شيخه الحميدي: وقد مضى معنا، وسُفيان: مضى معنا في رواية تابعي عن تابعي.

وهنا "سُفْيَانُ بن عُيينة" يقول في هذا السند: "حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَلَى غَيْرِ مَا حَدَّثَنَاهُ الزُّهْرِيُّ": يعني سفيان بن عيينة يروي هذا الحديث عن إسماعيل بن أبي خالد، ويرويه عن الزهري؛ لكن الألفاظ الموجودة عند الزهري تختلف عن الألفاظ الموجودة عند إسماعيل بن أبي خالد، وهذا يدل على تعدد طرق هذا الحديث، والرواية.

قَالَ: " لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ": والحسد في معناه العام هو تمني زوال النعمة عن الغير (تمني زوال النعمة عن الغير)، هذا المعنى العام وهو الأقرب، والبعض يقول: "تمني زوال النعمة عن الغير وتحولها له"، ولكن ليس بلازم، فمجرد تمني زوال النعمة عن الغير، سواء تمناها لنفسه، أو لم يتمناها، داخلٌ في الحسد، وهنا " لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ" المقصود منه: الحسد المحمود (الحسد المحمود)، الحسد على ثلاثة أنواع:

- الحسد المحرم المذموم.
- والحسد المحمود.
- والحسد المباح.

فالحسد المحرم: هو تمني زوال النعمة عن الغير.

والحسد المحمود: هو أن يتمنى الإنسان ما عند الغير من الفضائل الدينية (من الفضائل الدينية).

وأما الحسد المباح: فهو تمني ما عند الغير من الفضائل الدنيوية (من الفضائل الدنيوية)، فإذا تمنى الإنسان ما عند الغير من العلم وأبواب الصدقة والعبادات، فهذا يكون محمود، وأما إذا تمنى ما عنده من الأمور الدنيوية دون أن يتمنى زوالها من الشخص، فهذا داخلٌ في عداد المباح، وهذا من الاستثناء، "لا حسد إلا في اثنتين".

قال: "رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا": وهنا مالاً نكرة، يدخل فيه القليل والكثير من المال، وفيه فضل الصدقة، وفضل المتصدق، وحال الغني الذي يعمل بواجب المال من الصدقة، وهنا النبي ﷺ استخدم ألفاظ تدل على الدقة والمبالغة في هذا الشأن.

قال: " آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ": " فَسُلِّطَ" للإشارة إلى قهر النفس (قهر النفس)، لماذا؟ لأن المال محبوب إلى النفس (المال محبوب إلى النفس)، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨]، الخير هنا ماذا؟ المال، فالناس مجبولة على حب المال؛ ولذلك قال العلماء: "الغبطة في الأولى أشد من الثانية"؛ لأن النفوس تحب المال أكثر، فهنا فيه قهر للنفس.

"فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ": استخدام لفظة الهلكة يدل على إنفاذ المال، وأنه أنفق أغلب هذا المال.

ثم قال: "فِي الحَقِّ": هذا قيد مهم؛ لأن قد ينفق الشخص المال ويُنفذه لكن في الإسراف وفي التبذير، فهذا القيد يُبين أنه في الحق، يعني في الطاعة، وفي العبادات.

قال: "وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ": الحكمة المراد به: العلم (المراد به: العلم)، والبعض قال: "القرآن"؛ لأنه جاء في بعض الروايات: "ورجلٌ آتاه الله القرآن"، رواية مفسِّرة؛ لكن المراد به العلم على وجه العموم، والحكمة تأتي أيضاً بمعنى السنة.

قال: "فَهُوَ يَقْضِي بِهَا": أي يعمل بها.

"وَيُعَلِّمُهَا ": يعلمها للناس، لديه علم يُطبق ويحكم به بين الناس، ويعلم الناس بهذا العلم.

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ ذكر العلم، وذكر الجود، يعني الصدقة بالمال، قالوا: "لأن أحدهما إشارة إلى العبادات البدنية، والثاني إشارة إلى العبادات المالية"، وقالوا: "هذه من أصل الفضائل"، الفضائل الداخلية وهي العلم، والفضائل الخارجية وهي المال، فاستخدم النبي ﷺ ذكر أرفع الأشياء، وهذا كله بقصد الترغيب في العلم (الترغيب في العلم)، والحرص على العلم.

وذكر بعض العلماء أيضاً من الفوائد: ربط النفقة بالعلم (ربط النفقة بالعلم)، قالوا: "لأن الإنسان الذي يُنفق عن علم يكون أقرب إلى التوفيق والسداد، خاصةً في أبواب الزكوات، والصدقات، ومعرفة المصارف، وأحكام الزكاة، والصدقات.

وفي أثر عمر السابق، ذكر العلماء فائدة جميلة لعلي أختم بها، قالوا: "الحذر من معوقات العلم"، الحذر من معوقات العلم، هناك كثير من الأمور التي تعوق الإنسان عن العلم، منها: الانشغال بالأمور الدنيوية، ومنها التكاليف وغيرها، فينبغي على الإنسان أن يحذر من كل شيء يُعيقه عن العلم، وأيضاً فيه فائدة أن الإنسان لا يتصدر قبل التأهل (لا يتصدر قبل التأهل)؛ ولذلك قال: "تفقهوا قبل أن تسودوا"، فينبغي على الإنسان أن يتأصل وأن يتعلم، ثم يتصدر لتعليم الناس".

نقف عند هذا القدر، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وجزاكم الله خيراً..